

أمير المؤمنين علي (عليه السلام)



هناك مَن إذا ذكرت اسمه، شعرت بنفسك تدخل في كهوف التاريخ لتبث عنـه، لتحمل شمعةً هنا وهناك، حتى تستطعـ أن تعرفه و تتعرّفـ فكره و حيـاته .

وهناك مَن إذا ذكرتهـ، شعرت بـأنـ اسمـه يتجاوزـ الزمن، ويحلـقـ في الآفاقـ الـواسـعةـ التيـ تـطلـ بكـ علىـ المـطلقـ، ويـطـوـفـ بكـ فيـ كلـ مـوـقـعـ الـحـيـاةـ، حتـىـ إـنـكـ تـفـتـشـ عـنـ شـيـءـ لمـ يـتـحدـثـ عـنـهـ تصـرـيـحاـ أوـ إـيـاءـ أوـ إـيمـاءـ، فلاـ تـجـدـ هـنـاكـ شـيـئـاـ منـ ذـلـكـ، وعـنـدـمـاـ تـدـخـلـ عـقـلـهـ، فإـنـكـ تـرـىـ العـقـلـ الـذـيـ كـلـهـ شـرـوقـ، خـلـافـاـ لـكـثـيرـ مـنـ الـعـقـولـ الـتـيـ إـذـاـ دـخـلـتـهـاـ، فـقـدـ تـحـتـاجـ إـلـىـ كـثـيرـ مـنـ الـعـنـاءـ لـتـلـمـسـ [ـمـلـامـحـهاـ]ـ . . .

هـنـاكـ أـشـخـاصـ إـذـاـ ذـكـرـتـهـمـ، تـشـعـرـ بـأـنـهـمـ يـنـطـلـقـونـ بـكـ فـيـ التـجـريـدـ، حتـىـ لـتـحسـ فـيـ نـفـسـكـ مـعـهـمـ بـأـنـكـ تـبـتـعـ عـنـ الـحـيـاةـ.. وـهـنـاكـ أـنـاسـ إـذـاـ ذـكـرـتـهـمـ، شـعـرـ بـأـنـهـمـ إـذـاـ أـمـسـكـواـ الـمـجـرـدـ بـفـكـرـهـمـ، أـعـطـوـهـ حـرـكيـثـهـ وـأـنـزلـوـهـ إـلـىـ الـوـاقـعـ.

ذـلـكـ هوـ عـلـيـ (عليـهـ السـلامـ)، الـذـيـ إـذـاـ حـاـصـرـ الـتـارـيخـ لـيـبـحـثـ عـنـ بـعـضـ الـحـواـجزـ الـتـيـ كـانـتـ تـنـتـصـبـ أـمـامـهـ، وـعـنـ الدـوـائـرـ الـتـيـ أـرـيدـ لـهـ أـنـ يـحـاطـ بـهـاـ، وـعـنـ الـآـفـاقـ الـصـفـيرـةـ الـتـيـ حـشـرـ اـسـمـهـ فـيـهـاـ، وـعـنـ الـعـصـبـيـاتـ الـتـيـ أـرـيدـ لـهـ أـنـ يـكـتـبـ فـيـ عـنـوانـهـاـ، فإـنـكـ لـنـ تـرـىـ عـلـيـاـ فيـ كـلـ ذـلـكـ.

لـأـنـ عـلـيـاـ (عليـهـ السـلامـ) هوـ الإـنـسـانـ الـذـيـ عـاـشـ حـيـاتـهـ كـلـهـ مـعـ اـهـنـالـ، لاـ صـوـفـيـةـ تـخـتـرنـ الـمـشـاعـرـ، وـلـكـ اـنـفـتـاحـاـ يـجـعـلـكـ تـعـيـشـ مـعـ عـبـادـ اـهـنـالـ لـتـحسـسـ آـلـاهـمـهـ وـمـشـاـكـلـهـمـ، وـلـتـبـدـعـ لـهـمـ مـنـ خـلـالـ اـهـنـالـ عـقـولـهـمـ عـقـلاـ، وـلـتـبـدـعـ لـهـمـ مـنـ خـلـالـ وـحـيـ اـهـنـالـ فـكـرـاـ، وـهـوـ الـذـيـ عـاـشـ كـلـ قـلـبـهـ مـعـ اـهـنـالـ.

ولـذـلـكـ، كـانـ يـعـيـشـ مـعـ النـاسـ بـقـلـبـهـ الـذـيـ يـشـعـرـ وـهـوـ فـيـ قـمـةـ الـسـلـطـةـ: «لـعـلـ»ـ بـالـحـجـارـ أـوـ بـالـيـمـاـمـةـ مـاـنـ لـأـ طـمـعـ لـهـ بـالـقـرـصـ»ـ.

{وَمَنِ النَّاسُ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةٍ وَمَنِ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ} (البقرة/207).

{إِنَّمَا وَلِيَّكُمْ إِنَّمَا وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِذْنَنَا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} (المائدة/55).

هاتان الآياتان نزلتا في الإمام عليٌّ (عليه السلام)... نزلت الآية الأولى ليلة الهجرة، عندما باز (عليه السلام) على فراش الرسول ليغطي انسحاب رسول الله (من مكة)، وليشهد الله على إخلاصه لرسوله، لأنَّ الإخلاص للرسول إخلاص الله.

والآية الثانية نزلت عندما كان (عليه السلام) يصلِّي في المسجد، ودخل سائل، فلم تشغله صلاته عن أن يتمددّق بخاتمه على السّائل.

كان كل شيء في شخصيّته (عليه السلام) في خدمة الله، وهكذا كان سيفه وبطولته وشجاعته، لا في خدمة الذّات، وإنما في خدمة الله.

لم تكن الشجاعة والبطولة عنده حالة ذاتية، ولم يكن السلاح ملكاً شخصياً له، فهو يعتبر ذلك ملكاً لله، لهذا كان لا يحرّك سلاحه إلا في الموضع الذي يريد الله منه أن يحرّك سلاحه فيها، كان ينتظر أمر الله، وينتظر المعركة التي يشعر بأنَّ الله يرضى بها، ولا يسمح لنفسه بأن يدخل في أية معركة يمكن أن لا تكون في رضا الله، أو يمكن أن تسيء إلى الإسلام.

وهكذا إذا درسنا حروب عليٌّ (عليه السلام)؛ منذ الحرب التي بدأها في بدر مع رسول الله (صلى الله عليه وأله وسلم)، حتى الحرب التي انتهت بها حياته بعد ذلك مع الخوارج، نرى أنَّ الإمام عليٌّ (عليه السلام) كان يبحث عن الأساس الشرعي للحرب، وكان يريد أن يعرف كيف تتحرّك الحرب في طريق الله وفي طريق الإسلام، ولا تتحرّك في طريق الذّات وطريق الشهوات.

وهكذارأينا علياً (عليه السلام) في سلمه وحربه؛ فهو يسالم، لأن مصلحته الشخصية تفرض عليه السّلام، ولكن كان يسالم إذا كانت مصلحة الإسلام تفرض عليه السلم، حتى لو كان السّلام على حساب قضاياه الخاصة، ولهذا كان يقول: «لَا سُلْمَنَّ ما سَلَمْتُ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ».

كان يسالم عندما يرى أنَّ قضايا المسلمين تفرض عليه أن يسالم، ويحارب عندما يرى أنَّ حياة المسلمين ومصلحة الإسلام تفرض عليه أن يحارب، كانت حربه منطلقاً في طريق الله، وكان سلمه متحركاً في طريق الله.

عندما انطلق الإمام (عليه السلام) في حياته، كان يستصغر كلَّ من حوله أمام الله، ولهذا لم يكن يخاف من أحد، لأنَّ خوف الله قد شغله، وأنَّ شعوره بعظمة الله جعله ينسفل عن الذّظر في عظمة الآخرين.

ولهذا كان عليٌّ البطل الذي لا يخاف، كان الكُّرار غير الفرّار، قالها رسول الله (صلى الله عليه وأله وسلم) وهو يفتح للمسلمين سرّ شخصية الإمام عليٌّ (عليه السلام): «لأعطينَ الرّاية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، كرّار غير فرّار، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه».

يحب الله، فيكرّ على أعداء الله، ويحبّه الله، فيستمدّ القوّة من محبّته ليثبت في المعركة، لأنه يشعر بأنه برعاية الله يتحرّك.

هذه الروح التي أراد الإمام علي[ؑ] (عليه السلام) أن يجعل الناس يتحررُون من خلالها ، لأن[ؑ] أية قضية وأية مشكلة وأية معركة ، إذا لم تكن منطلقة من عمق الإيمان ومن روحِّيه ، فإنها تظل[ؑ] معركة على السطح ، وتظل[ؑ] معركة لا تثبت فيها الأقدام .